البلاغة الحجاجيّة في موسوعة الأميني

شعراء القرنينِ الأوّل والثاني الهجريينِ مثالاً

الأستاذ المساعد الدكتور
مصعب مكي عبد زيبية
musaab.zabiba@uokufa.edu.iq
جامعة الكوفة ـ كلية الآداب

Argumentative rhetoric in the AL-Amini encyclopedia

The poets of the first and second centuries Hijri are an example

Asst. Prof. Dr.
Musaab Makki Abd Zabiba
University of Kufa - Faculty of Arts

الملخص:-

إنّ للحجاج آلياته وأساليبه التي استعملها الشعر والأدب في إثبات أحقيّة الإمام عليّ عليه السلام في الخلافة، وأسبقيته، وريادته في تقلد زمام أمر المسلمين، فكانت الحجاجيّة الأدبيّة التي أثبتها كتاب السيّد عبد الحسين الأميني (الغدير في الكتاب والسنة والأدب)، مستندة إلى أبعاد برهانيّة وآليات المجادلة والاستدلال؛ وصولاً إلى فرضية الإقناع والإذعان والاعتراف، فقد وعى شعراء الغدير بصورة فطريّة وعمليّة نجاعة الفعل الخطابي المستند لآليات استحضار ظرف المتلقّي وطبيعته وتنوّعه ومشاعره اتجاه بنية يوم الغدير، واستطراده عبر الأجيال المتابعة؛ فكان خطابهم حاضرا بيننا الى يومنا هذا، بصورته، ومقامه، وجوهره، وبلاغته المطلقة، المعتمدة على المجادلة والمصارحة والمحاورة، في تشاكل قصدي في بنائه وغرضه الولائي.

الكلمات المفتاحيّة: البلاغة الجديدة، الحجاج، موسوعة الأميني.

Abstract:-

Al-Hajjaj has its own mechanisms and methods that were used by poetry and literature in proving the right of Imam Ali (peace be upon him) to the caliphate, his precedence, and his leadership in imitating the reins of the literary argument in the book by Abdel-Hussein al-Amini (Al-Ghadir in the Book, Sunna and Literature) was based on evidential dimensions which complemented the mechanisms of argument and inference; Down to the hypothesis of persuasion, acquiescence and recognition.

The Divine Poets became aware of the inborn and effective process of their oratory, based on the mechanisms of recalling the recipient's circumstances, nature, diversity and feelings about the structure of the Day of the Divine, and its continuity across generations to follow; Their speech has been present among us today, in its image, its essence, its eloquence, which is based on argument, frankness and dialogue, in a deliberate manner in its structure and its jurisdictional purpose.

Keywords: new rhetoric, Argumentation, Al-Amini encyclopedia.

التمهيد: الحجاج في موسوعة الأميني

يرصدُ لنا كتاب الغدير للسيّد عبد الحسين أحمد الأمينيّ النجفيّ (١٩٠٢- ١٩٧٠م)؛ وقفات حجاجيّة عديدة منها القرآن الكريم، والسنة الشريفة؛ فضلاً عن الاحتجاج بالأدب، ولاسيّما الشعر؛ لما يحمله من أبعاد ثقافيّة واجتماعيّة وحجاجيّة عميقة عند العرب في العهود القريبة من ظهور الإسلام، وإلى يومنا هذا، إذ لم يتقهقر عن مكانته الرفيعة، محافظاً على موقعه الأصيل من المجتمع والحضارة؛ وإن أصابه بعض الوهن في أيّامنا هذه؛ لأسباب عدّة، ولعلّ منها؛ القطيعة الجمالية مع التراث، مما جعل القارئ متعلّقا بكلاسيكيّاته؛ لأنّ حداثته منقطعة عنه، وهذا ما أدّى إلى أن يفقد الشعر بعضاً من آثاره الطليعيّة في قيادة الوعي الجمعي الحجاجي، والتعايش مع مشكلات الواقع؛ ليصبح أدباً مُعتم التأثير، وفي النتيجة أدبٌ بلا قارئ[١].

ويؤكّد السيّد الأمينيّ أهمية الشعر الموالي الذي أطلقَ عليه (الشعر المذهبيّ)، إذ أنّ له "مآرب أُخرى هي من أهمّ ما نجده في شعر السلف، ألا وهي الحجاج في المذهب، والدعوة إلى الحقّ، وبثّ فضائل آل الله، ونشر روحيّات العترة الطاهرة في المجتمع، بصورةٍ خلّابة، وأُسلوب بديع، يُمازج الأرواح، ويُخالط الأدمغة"[٢]؛ لما يستند إليه الحجاج من آليات استدلاليّة، وتفسيريّة، وبرهانيّة، واستقرائيّة، وقياسيّة، تُوقع الخصم في فخّ الإذعان والتسليم والاعتراف، أو التقهقر. وهناك من يدّعي أنّ للشعر هتافات غيبية للترويج للدين، خوطب بها أناس في بدء الدعوة الإسلاميّة، فكانت سبباً للهداية، وهي من معاجز النبي - ﷺ -، وهذا ينمُّ عن أهميّة الشعر الحجاجيّ في إفهام المستمع[٣]، بأن يحاط بالغيبيّات وموروثات الميثولوجيا، بالعقل الجمعي لعامّة الناس.

وللشعر أهمية عظمى في منهج أهل البيت - عليهم السلام -، فقد جاء في كتاب الغدير ما نصّه: "وقد يكسب الشعر بناحيته هذه أهمية كبرى عند حماة الدين أهل بيت الوحي حتّى يُعدَّ الاحتفاء به، والإصغاء إليه، وصرف الوقت النفيس دون سماعه واستماعه من أعظم القربات، وأولى الطاعات، وقد تُقدَّم على العبادة، والدعاء في أشرف الأوقات، وأعظم المواقف"[٤]. ولعلّ الحادثة الشهيرة المروية عن الإمام الصادق - عليه السلام - خير دليل على أهمية الشعر في تمثّل الحقيقة، وتوظيفه في نشر صدق الدعوى، وإثبات الأحقيّة لأهل البيت - عليهم السلام -، إذ روي عن الكميت عند دخوله على الإمام الصادق - عليه السلام -، في أيّام التشريق بمنى، طالبا

الإنشاد في تلك الأيّام العِظام، فلما علم الإمام ـ عليه السلام ـ أنّ الشعر فيهم أَذِنَ له، وقد بعثَ إلى ذويه فقرّبهم إليه، قائلا: هات؛ فأنشده: (لاميته)، وجاء في مقدّمتها:

أَلَا هَلْ عَمٍّ فِي رَأْيِهِ مُتَأَمِّلُ وَهَلْ مُدْبِرٌ بَعْدَ الإِسَاءَةِ مُقْبِلُ[٥]

وقد دعا له الإمام ـ عليه السلام ـ سبحانه وتعالى، وكافأه بألف دينار وكسوة[٦]. وهذا يبيّن بصورة جليّة أهمّية الشعر الحجاجي عند أهل البيت ـ عليهم السلام ـ بشرط أن يكون على جادة الحقّ، وفي سبيل الله سبحانه وتعالى.

وأكّد السيّد الأميني أنّ حجاجيّة الشعر تفوق النثر؛ لما فيه من "باب الإلقاء، والحجاج، وإفهام المستمع، وإنّ أخذه بمجامع القلوب والأفئدة آكد من الكلام المنثور"[٧]؛ ولما يضمّه من أساليب تدعو إلى التأثير، والتحفيز، والميل، والإقناع، بفضل الصور البيانيّة، والبديعيّة، وانزياحات علم المعاني التي تتضمّنه.

والحقيقة أنّ هذه النظرة نابعة مما شرّعه القرآن الكريم من مبادئ رسّخها باتجاه حجاجيّة الشعر والشعراء حين فصل بين مسارين أحدهما يتّجه نحو الأخلاق والإنسانيّة، والمبادئ السامية، والفضيلة، ونبذ الانحلال، والتفسخ الاجتماعي والأخلاقي، والاتّجاه الثاني: هو الاتجاه المشوّه الذي يدعو إلى الرذيلة، والكذب، والنفاق، والباطل، ومساندة أهل الضلال والظلم؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾[٨]، لقد أمدّ الله سبحانه وتعالى شعراء هذين الاتجاهين بالقدرة والموهبة، والخيال، والإبداع المرهف؛ ليكون الشاعر بعد ذلك مسؤولاً عمّا يسجّله من معانٍ وموضوعات؛ لتصبّ في أحد هذين الاتجاهين اللذين أشرنا إليهما.

إنّ الله أراد من الإنسان أن يكون جوهراً صالحاً مفيداً يسيرُ على جادّة الحقّ، لا يزوغ عن هذا الاتّجاه طرفة عين، وأراد القرآن من الشعر أن يكون رسالة إنسانيّة حجاجيّة مبدئيّة، وطريقاً سوياً تسير عليه الأمّة التي تتّصفُ بالإصلاح والصدق، ولقد أشار القرآن إلى هذين الاتجاهين بوضوح لا يدع مجالاً للتأويل، أو الشكّ، فأمّا أن يكون بجادّة الحقّ والصدق، أو يكون ناصراً للباطل والكذب قال الله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾[٩] الاتّجاه الأوّل، الذي ميّزته بصورة أوضح الفاصلة القرآنيّة التي كانت فاصلة بين الاتجاهين، ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ

يَنقَلِبُونَ﴾[١٠]، وهو الاتجاه الثاني. إذاً إمّا أن تكون باتّجاه الغاوين، أو باتّجاه المصلحين.

وهذا النهج لم يحد عنه الرسول الأكرم ـ ﷺ ـ، وهو القائل: "لا تدع العربُ الشعرَ حتّى تدع الإبل حنينها"[١١]، وقد سار على نهج القرآن الكريم عندما حدّد المسارين: (الصالح والطالح) بقوله: "إنّما الشعر كلام مؤلّف فما وافق الحقّ فهو حسن، وما لم يوافق الحقَّ فلا خير فيه"[١٢]. إذ يصنّف ـ ﷺ ـ الشعر على صنفين أحدهما يوافق الحقّ، وهو المطلوب من الشاعر الحجاجي الملتزم أن يؤدّيه، والآخر يخالف الحقّ، ولا يسير على نهجه القويم.

لقد كان الشعر سلاحاً مهمّا في نصرة الإسلام، إذ قال الرسول ﷺ: "إنّ المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأنّما ترمونهم به نضح النبل"[١٣]، وحرّم الإسلام من يمدح الظالمين في كلّ زمان ومكان؛ لأنَّ هذا العمل خلاف النهج الذي اختطه الإسلام فقد ورد عن النبي ـ ﷺ ـ: "أحثوا في وجوه المدّاحين التراب"[١٤]. وعلى هذا المنوال قال الرسول ـ ﷺ ـ: "من مدح سلطاناً جائراً، أو تخفَّف وتضعضع لهُ طمعاً فيه، كان قرينه في النار"[١٥]. نعم إذا كان الشعر ينبع من عمق إنسانيّ، لا يتأثّر بالنفاق السياسيّ، فإنّه يتراءى للنفس على أنّه شعاع من المعرفة والفنّ والأصالة.

المبحث الأوّل

المهاد النظريّ للحجاج

كانت بدايات الحجاج في الفكر الغربي اليوناني مع أفلاطون وأرسطو؛ إذ إنَّ أفلاطون "كان يرغب بجعل البلاغة أداة فكريّة لخدمة البحث عن الحقيقة"[١٦]، وهذا يعني خروج البلاغة من أطر التّحسين المقصود للإمتاع فقط؛ فإرسال الكلام بصورة بلاغيّة بيانيّة إنّما يُراد منه غاية إقناعيّة للمتلقّي؛ ليتوسّل حينها الباثّ طرائق الحجاج؛ فيثبت صدق دعواه، وجاء بعده تلميذه أرسطو، وكانت البلاغة عنده خطاباً حِجاجيّاً يقوم على وظيفتي التأثير والإقناع؛ إذ "يحصل الإقناع حين يُهيّأ المستمعون ويستميلهم القول الخطابي؛ حتّى يشعروا بانفعال ما؛ لأنّنا لا نصدر الأحكام على نحو واحد حسبما نحسّ باللذة والألم، والحبّ والكراهيّة"[١٧]؛ فتهيئة المستمعين للتّأثير بهم يكون عن طريق استعمال الأساليب البلاغيَّة (البيانيّة والبديعيّة)، وهذا ما دعا بعدئذٍ إلى ولادة البلاغة الجديدة، وهي: "البلاغة الحجاجيَّة الّتي تتعارض مع بلاغة الصور الفنيّة والمحسنات البديعيّة"[١٨]. التي تبعد عن بحث الألفاظ لتنتقل إلى بحث

المعاني، وتتجاوز بحث الجمل والتراكيب إلى دائرة العمل الأدبي الكامل[١٩].

ولابدّ من إلقاء ضوء على نشأة الحجاج لفهم طبيعته والتداعيات الَّتي حملته على التطوّر والتوسّع، إذ نشأ في أكناف البيئة الغربيَّة الَّتي تتعدّد فيها المشارب والاتّجاهات الفكريّة والمعرفيّة، والّذي دعا كلّ أصحاب حركة فكريّة أو معرفيّة أن تحاول إقناع الآخرين بمعتقداتها؛ لأنّ "المتحاورين لا يتقاسمون في كلّ الأحوال نفس المعارف، ونفس المقتضيات الحواريّة، وهو ما يجعل طبيعة الاختلاف الموجودة بينهم [تلعب دوراً] مركزيّاً في تحديد نمط الحوار الَّذي يمكن أن يتّخذ سبيلاً ناجعاً؛ لرفع أوجه التباين بينهم"[٢٠]؛ فراحوا يبحثون في الأساليب اللغويَّة والعقليّة، فكانت الإرهاصات الأوليَّة في المجتمع اليوناني قبل (٤٦٥) للميلاد[٢١]، المجتمع الَّذي انتقل من البيئة الزراعيّة البدائيّة إلى بيئة مدنيَّة متحضّرة، أوجدت لديهم تعدّداً في المعتقدات والتوجّهات، وبطبيعة الحال حصلت الخلافات بين ذلك المجتمع، مما أحوجهم إلى سبيل يحلّ بينهم هذه العقدة، ويحاول أن ينقل الخلاف إلى وفاق، "وكانت تلك الحاجة الحجاجيَّة الجماعيّة الملحّة سبباً مباشراً في تأليف أوّل خطابة في تاريخ الغرب"[٢٢].

والحجاج بصورة عامّة هو أن تظهر ما لديك من دعوى، وتُشير إلى دعوى الخصم، ومن ثمّ تستعرض ما يمكن من أدلّة وحجج هدفها إفحام الخصم، والنتيجة قد تكون إقناعه بتلك الحجج، أو الإصرار على المواقف السابقة[٢٣]، وعُرِّفَ الحجاج بأنَّه: "درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدّي بالأذهان إلى التسليم بما يُعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم"[٢٤]؛ فالحجاج يسعى بشكل دؤوب إلى أن تذعن عقول السامعينَ، أو القارئينَ لما يطرحه النصّ من أفكارٍ بحيث يضمن الاستجابة القوليّة، أو العمليَّة، أو التمسّك بما يطرحه النصّ من عقائد، أو قل على أقل تقدير يلزمهم الحجة والبيّنة بما يقدّمه من براهين وأدلّة، بحيث يجعلهم غير معذورينَ أمام الله سبحانه وتعالى، وأمام أنفسهم بأنَّهم لم يتعرّفوا بالحقيقة أو العدل، وقد عرِّف الحجاج من الناحية التداوليّة بأنَّه: "فعالية تداوليّة جدليّة، فهو تداولي؛ لأنَّ طابعه الفكري مقامي واجتماعي، إذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة، ومطالب إخباريَّة، وتوجّهات ظرفيَّة، ويهدف إلى الاشتراك جماعياً في إنشاء معرفة عمليَّة، إنشاءً موجهاً بقدر الحاجة، وهو أيضا جدلي؛ لأنَّ هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلاليّة أوسع وأغنى من البنيات البرهانيَّة الضيِّقة"[٢٥]، ولهذا يمكن القول إنَّ الجانب الخطابي سوف يتحوَّل إلى فعل عملي، أو قولي فيما بعد، وهذا ما يعرف بـ (السلالم

الحجاجيَّة)[٢٦]. وتتأسَّس بنية الحجاج من عناصر المكوّنات اللغويَّة المكوِّنة لمعاني الجمل والنصوص، وهو ما يعرف بـ (الروابط الحجاجيّة وعواملها)[٢٧]. فالعلاقة الدلاليَّة حاضرة في الممارسة الحجاجيَّة بشدةٍ، "فالباثُّ يعوِّلُ على الحجَّة كدليل يلتمّسه في إنتاج الفعاليّة الخطابيّة والقصديّة المتصلتين باللغة، التي تنطوي على أقوى مظاهر القصديَّة"[٢٨]، ولا يكون العمق الحجاجي وشدَّته إلَّا بوساطة الأدوات البلاغيَّة التي هي نظير الحجاج وقسيمها على حدّ المساواة العملية. وتتّسم الحجج اللغويّة بميّزات منها[٢٩]:

١ـ إنَّها سياقيّة: بمعنى أنّ السياق هو من يمنح العناصر الصفة الحجاجيّة، فقد يكون العنصر الدالّ حجة، أو نتيجة، أو غير ذلك بحسب السياق.

٢ـ إنَّها نسبيّة: فلكلّ حجة قوّة حجاجيّة معيّنة، فالحجج قد تكون قوية أو ضعيفة، أو قوية وأقوى؛ فقد تقدِّم حجة قوية، فيردُّ الآخر بحجة أقوى منها فتدحضها.

٣ـ إنَّها قابلة للإبطال: فالحجاج اللغوي نسبي ومرن وسياقي، أمّا البرهان المنطقي؛ فهو حتمي. والعلاقة التي تربط بين الحجة والنتيجة تدعى بـ (العلاقة الحجاجيّة)

وعلى الرغم من أنّ حظ الشعر أقل من النثر في الحجاج؛ لكون النثر مرتبطا بالعقل، والفكر، والمنطق، والبرهنة التي هي شديدة الصلة بالحجاج، في حين أنّ هذه المسائل قليلة الشأن في الشعر؛ لأنَّ التركيز والتبئير يكون منصباً على العاطفة والوجدان، إلَّا أنَّنا لا نعدم ظهور الحجاج في فنِّ الشعر والقصيدة.

لذلك يمكن القول: إنّ الغاية الإقناعيَّة الَّتي حمل لواءها الحجاج جعلته موضع اهتمام البلاغيّين؛ فالإقناع مقصد من مقاصد البلاغة إلى جانب الإمتاع والتفنّن في الكلام، وبعد ظهور نظريَّات الحجاج وتطوّرها التفت البلاغيّون إلى هذا المقصد، فحاولوا أن يوظّفوا دراساتهم البلاغيَّة القائمة على إظهار الصور البيانيّة والبديعيَّة في النصوص، وبيان جماليّتها التعبيريّة والفنيَّة بعد أن مُلأت كُتب البلاغة بها في بيان البعد الإقناعي لهذه الأساليب، وليس البعد الجمالي فقط، فكان عندهم المنظور الجمالي قائماً على الإقناع ونسبته، بعد أن كان قائماً على عمق الصورة والانزياح، حينئذ أصبح الحجاج فنّ بلاغةٍ، وصارت البلاغة حجاج، تدرس علوم البلاغة التقليديَّة في ضوء نظرها إلى العلاقات الحجاجيَّة، ومدى نجاعتها.

المبحث الثاني

الوسائل الحجاجيّة في موسوعة الأميني

أوّلاً: الوسائل الخطابيّة

أ ـ الغائيّة:

غاية الحجاج هو الإقناع والإذعان بما يحمله الخطاب ـ سواء أ كان نثراً أم شعراً ـ من أفكار وآراء وأطروحات ومعتقدات، وقد أكّدت القصيدة الغديريَّة في القرنينِ الأوّل والثاني أحقيّة الإمام علي ـ عليه السلام ـ بالخلافة، وأثبتت بطلان الاتجاه المخالف وسلبيته. فالقصد المعلن في القصيدة يتّجه نحن إثبات واقعة (غدير خم)، وقد اتّسم تأطير هذه الغائيّة بأسلوب مباشر، وآخر مبطن، وعلى هذا المنوال اتّجه (عمرو بن العاص) (ت ٤٣هـ) في قصيدته المعروفة بـ (الجلجليّة)، بتصريح مباشر من أحد أعداء الإمام ـ عليه السلام ـ، وهذا يكون أوقع بالاستدلال والحجيَّة، إذ يقول عمرو بن العاص:

وكم قد سمعْنَا من المُصطفى ... وصايا مخصَّصةً في علي؟
وفي يومِ (خمٍّ) رَقَى منبراً ... يُبلِّغُ والركبُ لم يرحلِ
وفي كفِّه كفُّه مُعلناً ... يُنادِي بأمرِ العزيزِ العلِي
أ لستُ بكم منكمُ في النفوسِ ... بأولى؟ فقالوا: بلى فافعلِ
فأنحلَهُ إمرةَ المؤمنين ... مِنَ اللهِ مُستخلفَ المنحلِ
وقالَ: فَمَنْ كنتُ مولىً له ... فهذا لَهُ اليومَ نِعْمَ الولِي
فوالِ موالِيه يا ذا الجلا ... لِ وعادِ معادِي أخِ المرسلِ
ولا تنقضُوا العهدَ من عترتِي ... فقاطعهُمْ بِي لم يُوصلِ[٣٠]

والقصيدة وإن جاءت بدافع الانتقام بعد أن حرم معاوية ابن العاص ما وعده من عطاء، إلّا أنّ غايتها المعلنة الظاهرة هي إثبات خلافة الإمام علي ـ عليه السلام ـ بعد الرسول صلى الله عليه وآله، وبطلان دعوى معاوية بالخلافة وخلافة شيوخه، وإنّه قد اغتصب حقّ الإمام علي ـ عليه السلام ـ، بغض النظر ممن صدرت، أو بأي سبب صدرت؟، فنظرنا متوجه إلى القول، وليس إلى القائل.

ب ـ الاتساق:

يجب أن يكون الخطاب الحجاجي على درجة عالية من الاتساق والتماسك؛ وأن تكون

الأفكار على مستوى بلاغي عال، تتجلّى فيها الصور البيانيّة، محتضنة الجمال، وربّما تأتي الفكرة الواحدة بصور متعدّدة، وذلك لغرض التأكيد، ومن ثمّ التأثير. يقول السيّد الحميري:

يـا أهـلَ كوفـانَ إنّـي وامـقٌ لكـمُ ... مـذْ كنْـتُ طفـلاً إلى السـبعينَ والكـبرِ
أهـواكمُ وأوالـيكمُ وأمـدحكمْ ... حتمـاً علـيَّ كمحتـومِ مـن القـدرِ
لحـبّكم لوصـي المُصـطفى وكفـى ... بالمُصـطفى وبـهِ مِـنْ سـائرِ البشـرِ
والسـيّدينِ أولى الحُسـنى ونجلـهمُ ... سمـي مَـنْ جـاءَ بالآيـاتِ والسـورِ
هـو الإمـامُ الـذي نرجـو النجـاةَ بـهِ ... مِـنْ حـرِّ نـارٍ على الأعـداءِ مستعرِ[٣١]

إذ أبانت الضمائر التماسك في هذه الأبيات، فالضمائر في: (وامق لكم ـ أهواكم ـ أواليكم ـ أمدحكم ـ حبّكم)؛ أشارت إلى (أهل كوفان)، فجعل حبّه وولايته ومدحه لأهل كوفان؛ بسبب حبّهم لوصي المصطفى، ثمّ إنّ وصيّ المصطفى فيه إحالة إلى غائب يفهم من مرجعيّة سابقة بأنّه هو الإمام علي ـ عليه السلام ـ، وكان السيّد الحميري في مقام إثبات معتقده الراسخ بأحقية أمير المؤمنين حتّى أنّ من كان يحبّ الأمير فهو على حقّ ولذلك أحبّه. ونلاحظ الإحالة في قوله: (والسيدين)، فهذه الإحالة أيضا كانت إلى غائب يفهم من قوله (ونجلهم)، إذ إنّه علّق شخص نجلهم بسمي من جاء بالآيات والسور، وهو أمير المؤمنين، والمقصود بـ (جاء) ليس بمعنى الإنزال من الله، فهذا من مخصوصات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، بل لكونه حافظا لهذه الآيات والسور بإعماله لها، فسمّيّ أمير المؤمنين نجل الحسن والحسين عليهما السلام، وهو الإمام علي بن الحسين زين العابدين ـ عليه السلام ـ وبذلك فهمت الإحالة بقوله السيدين بأنّهما الحسن والحسين، والضمير (هو) فيه إحالة قبليّة فهمت من الأبيات السابقة وهو الإمام علي ـ عليه السلام ـ، فهذا التماسك أتاح للشاعر أن يكثّف في أبياته مجموعة من الحجج التي كانت في تسويغ حبّه لأهل كوفان، فكانت مجموعة من الحجج المتماسكة المترابطة بصورة انسيابيّة ثرة بالمعاني.

جـ ـ التحاور:

وتتجلّى هذه التقنية في التساؤلات والردود، ويحمل التحاور أهمّية بما يفترض من تعدّد في الآراء، من رفض وقبول يكونان حاضرين أمام المستقبِل الذي تتاح له فرصة الاختيار في خضم الرؤى المتعدّدة، إذ يقوم الحجاج على موضوعيّة الحوار؛ فلا يقف المُحَاجِج موقف الخصم المعاند، بل يقف موقف الشريك المتعاون، لأجل استمالة المتلقّي[٣٢]. والمثال على

ذلك قول حسان بن ثابت (ت ما بين ٣٥ ـ ٤٠ هـ).

يُنـــاديهمُ يـــومَ الغـــديرِ نبـــيِّهم ... بخـــمٍّ وأسمـــعْ بالرســـولِ مناديـــا
فقـــال: فَمـــنْ مـــولاكمُ ونبـــيُّكم ... فقـــالوا ولم يبـــدوا هنـــاك التعاميـــا:
إلهـــكَ مولانـــا وأنـــتُ نبيُّنـــا ... ولم تلـــقَ منَّـــا في الولايـــةِ عاصـــيا
فقـــالَ لَـــهُ: قـــمْ يـــا علـــيُّ فـــإنَّني ... رضـــيتك مـــن بعـــدِي إمامـــاً وهاديـــا
فمـــن كنـــتُ مـــولاهُ فهـــذا وليُّـــه ... فكونـــوا لـــه أتبـــاع صـــدق مواليـــا
هنـــاك دعـــا اللـــهمَّ وآل وليَّـــه ... وكـــن لِلـــذي عـــادا عليّـــاً معاديـــا[٣٣]

الحواريّة بالقصيدة فيها مقاصد حجاجيّة بلاغيّة، يمكن أن نتلمسها في هذه الأبيات التي تعدّ "أوّل ما عرف من الشعر القصصي في رواية هذا النبأ العظيم، وقد ألقاه في ذاك المحتشد الرهيب، الحافل بمائة ألف أو يزيدون"[٣٤]. فالمشهد الشعري يتمازج مع المشهد الواقعي، في مادّته الحواريّة: (فقال ـ فقالوا ـ فقالَ له). وأنتج هذا التمازج بالمشهدين الصدق الفني الذي يكون أثبت إقناعا في البلاغة الحجاجيّة.

د. الموضوعيّة:

وهي ضرورة حجاجيّة؛ إذ إنّها تستند إلى وثيقة تاريخيّة دقيقة، غير قابلة للإنكار، أو التنصل، وتحاول توخي الموضوعيّة العلميّة في الطرح بما تحمل من مستند سواء أ كان هذا المستند قرآنياً، أم حديثياً، أم وثائقياً. يقول مصعب العبدي الكوفي:

كيـــوم خيـــبر إذ لم يمتنـــع زَفُـــرٌ[٣٥] ... عـــن اليهـــودِ بغـــيرِ الفـــرِّ والهـــربِ
فأغضـــبَ المصـــطفى إذ جـــرَّ رايتـــه ... علـى الثـرى ناكصـاً يهـوي علـى العقـبِ
فقـــال: إنّـــي ســـأعطيها غـــداً لفـــتىً ... يحبُّـــهُ اللّهُ والمبعـــوثُ منتجـــبِ[٣٦]

فالمرجعيّة في هذه الأبيات كانت مرجعيّة روائيّة حديثيّة تاريخيّة، في ذكره غزوة خيبر، ومجريات تلك الغزوة، إذ تنصّل عن مقاتلة اليهود أبطال العرب في جيش المسلمين؛ مما أخّر في تحرير خيبر من اليهود، وتستند الأبيات إلى الوثيقة التاريخيّة في قول رسول الله: "لَأُعْطِيَنَّ هذه الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ علَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللَّهَ ورَسولَه، ويُحِبُّهُ اللَّهُ ورَسولُهُ... فَقالَ: أيْنَ عَلِيُّ بنُ أبِي طَالِبٍ؟ فقيلَ: هو -يا رَسولَ اللَّهِ- يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، قالَ: فأرْسَلُوا إلَيْهِ... فأعْطَاهُ الرَّايَةَ"[٣٧]. وهي وثيقة صحيحة مذكورة في أصحّ الكتب عند العامّة.

هـ ـ التبجيليّة:

هذه الأسلوبيّة تحاول التقرب من المرسَل إليه، بغية تغليب منطق التأدّب مع المخاطب، واحترامه، والتضامن معه، وتبجيله والتودّد إليه[٣٨]، وهو ما يُصطلح عليه بـ (التخلُّق). فالخطاب الذي يُراد إليه أن يصل يجب أن يكون ذا طابع متساهل غير عنيف، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[٣٩]. يقول الشاعر قيس بن سعد[٤٠].

جَزَى اللَّهُ أهلَ الكوفةِ اليومَ نصرةً ... أجَابُوا ولم يأتُوا بِخذلان من خذلْ
وقالُوا علىٌّ خيرُ حافٍ وناعلٍ ... رضِيْنا بِهِ من ناقضي العهدِ من بدلْ
همُ أبرزَا زوجَ النبيِّ تعمداً ... يسوقُ بها الحادِي المنيخَ على جملْ[٤١]

هنا يستعمل الشاعر الأسلوب اللين المرن من أجل استعطاف مشاعر أهل الكوفة ممن لا يوالي أمير المؤمنين؛ ليقفوا إلى جانب الحقّ، فالحقّ وإنْ كان الجديرُ بالناس أن يتّبعوه إلّا أنّه يحتاج إلى جانب من الحجاج الاستعطافي من أجل ميل الناس إلى جانبه، وظهر الاستعطاف في أسلوب الدعاء (جزى الله)، والتذكير بمواقفهم المشرفة الماضية: (أجابوا ـ ولم يأتوا بخذلان ـ قالوا ـ رضينا)، وتذكيرهم بما فعل المناوئون يوم الجمل.

وـ التوجهيّة:

نرى فيها صور الإنذار، والتحذير، والتقريع، ولا يكون ذلك إلّا جرّاء عمل مشين، أو ترك شيء مهمّ لا ينبغي أن يترك. وتكون هذه الأسلوبيّة مرتبطة بعلاقة بين طرفي الخطاب، بين "التباين الشديد حتّى التقارب الملموس"[٤٢]، ويكون خطاب هذه الأسلوبيّة واضحاً مباشراً صلفاً، قصير العبارة لا يحتاج إلى اللفّ والدوار، أو المرونة والمداراة، قائماً في نجاحه على امتلاك سلطة تكون آمرة وموجهة. قال العبدي الكوفي:

قم يا علي فإني قد أمرت بأن ... أبلّغ الناس والتبليغ أجدر بي
إنّي نصبت عليا عاديا علما ... بعدي وإنّ عليّاً خير منتصب
فبايعوك وكلّ باسط يده ... إليك من فوق قلب عنك منقلب[٤٣]

فحملت الأبيات المعنى التوجيهي من رسول الله ﷺ الَّذي يمتاز بالسلطة الفوقيّة على البشر جميعاً، السلطة الَّتي تجعله في مقام التبليغ، المقام الأجدر به - ص-، فكان الأمر من رسول الله إلى عليّ بن أبي طالب واجب الإذعان، فعليٌّ - عليه السلام - يقرّ بسلطة رسول الله ﷺ وحاكميته؛ لذا امتثل لأمره، ومن ذلك انطلق الشاعر إلى أمر رسول الله ﷺ في حادثة الغدير، إذ أمر بأن يُبايعَ علي خليفة له، هذا الأمر تجب إطاعته أيضاً؛ لأنَّه صادر من سلطة حاكمة لها الولاية، والناس آنذاك كانوا معتقدين بهذه الحاكميّة؛ لذلك بايعوا، وكلَّهم بسطوا أيديهم للبيعة، فمثّلت الأسلوبيَّة التوجيهيَّة عاملاً مهماً في حتميَّة الاستجابة للأمر الصادر من المخاطب الَّذي يتَّصف بالسلطة، التي من دونها لا يمكن أن يكون الأسلوب التوجيهي ناجحاً، وقال قيس الأنصاري:

فما للزبير الناقضِ العهدِ حرمةٌ ... ولا لأخيهِ طلحةَ اليومَ من يدِ
أتاكم سليلُ المصطفى ووصيِّه ... وأنتم بحمدِ اللهِ عار من الهدِّ[٤٤]

الأبيات تقرع طلحة وأخيه الزبير؛ لنقضهما بيعة الإمام عليّ - عليه السلام -، واستعمل الشاعر المجاز المرسل بعلاقته الضدّيّة (التهكم) لهذا التقريع بقوله: **(وأنتم بحمد الله عار من الهدّ)**، والحمد لا يتلاءم مع العار، والعار نقيض الهدي، ولكن الشاعر جمعهما معاً من أجل البلاغة الحجاجيّة التهكميّة الاستهزائيّة.

ز- الإقناعيّة:

هي الأسلوبيّة غير القمعيّة، أو الإكراهيّة، وتسير نحو التخييريّة، والاستدلاليّة، والحجّيّة التي تجعل هامشاً من الفكر؛ لكي يُحدّد الاتجاه الذي ينبغي السير عليه، فهي: "لا تكتسي صبغة الإكراه، ولا تدرج على منهج القمع، وإنّما تتّبع في سبيل تحصيل غرضاً سبلاً استدلاليّة متنوّعة تجرُّ الغير جرّاً إلى الاقتناع برأي المحاور"[٤٥]، وتكون هذه الأسلوبيّة عند توافر أكثر من خيار يتاح للمتلقّي التخيير بينها، وترجيح الأكثر مقبوليّة، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾[٤٦]. ومن هذه الأسلوبيَّة نلحظ قول السيد الحميري:

أتسب صنو محمدٍّ ووصيّه ... ترجو بذاك الفوز والإنجاح
هيهات قد بعدا عليك وقرَّبا ... منك العذاب وقابض الأرواح

أوصـــى الـــنبيِّ لـــه بخـــير وصـــيّة يـــوم (الغـــدير) بـــأبين الإفصـــاح[٤٧]

إذ إنَّ الشاعر تعامل مع الَّذي يسبّ أمير المؤمنين -عليه السلام- معاملة المحاججة المنطقيَّة، فلم يأخذ سبل الردّ النقضيّ القائم على المغالطة ثمّ في النهاية قد يصل إلى القمع، ولم يكن مكرهاً المقابل على الأخذ برأيه، فقد أورد مجموعة حوادث من شأنها أن تعدل به إلى عدم السبّ والكره لشخص عليّ بن أبي طالب -عليه السلام-، منها أنَّه وصيُّ النبي صلى الله عليه وآله، والملاحظة المهمَّة أنَّ الشاعر لم يعطي الحكم أو الوصف على نحو أنَّه مثبت، بل قام بتعزيزه ببرهان تاريخي، فقد ذكر (يوم الغدير) دلالة على ولاية علي بن أبي طالب -عليه السلام-، والأسلوبيَّة الإقناعية تجلَّت في هذه الأبيات تجلياً واضحاً، من جانب استعمال الشاعر سبيلاً استدلالياً قد تؤديّ نهايته إلى إقناع المتلقّي، ومن ثمّ تتجلّى الإقناعيّة تجليّاً بارزاً حين يقول في آخر هذه الأبيات:

إنَّـــي أخـــاف عليكمـــا ســـخط الَّـــذي أرســـى الجبـــال بسبســـب صحصـــاح[٤٨]

إذ أبان الشاعر أنَّه بقوله الَّذي تقدَّم من رفضه لسبّ الوصيّ والَّذي أورد البرهان عليه لم يكن إلَّا لأنَّه يخاف على الخصم من غضب الله وسخطه، وهذه النتيجة الَّتي ينبغي أن تكون ضمن المواعيد الإلهيّة في القصاص من ظالمي أوصيائه، وكان ذلك بعد أن أثبت الشاعر الوصاية لأمير المؤمنين -عليه السلام-.

ثانياً: الوسائل المعنويّة:

أ. الاستفهام

الاستفهام من الوسائل المعنويّة الحجاجيّة، التي تتضمّن التقريع والتركيز على بؤرة مركزيّة ينضوي عليها الحثّ على التفكر في نقطَة معيَّنة، والاستفهام هنا لا يُطلب منه الإجابة، بل يُطلب منه مراجعة النفس، وإرجاعها إلى جادة الحقّ المبين، وذلك بجعل "المرسَل إليه يركّز على نقطة ملحّة في الخطاب، أو ليتحقّق المرسِل من أنّ المرسَل إليه مركّز على نقطة محدّدة سلفا"[٤٩]، وهذا النمط من الانزياح يحتلّ موقعاً مهمّاً من البلاغة؛ لما ينضوي عليه من تبئير على نقاط معيّنة، وفيه يغلّف المرسل مقصده بغلاف التساؤل، ومن ورائه مقاصد أخر، من بينها ضمّ المرسَل إليه لخطابه، والمشاركة بالكلام مع المرسِل، أو فرض الأمر الواقع، ويُعبر عن هذه الاستراتيجيّة بـ (التلميحيّة)[٥٠]. يقول قيس الأنصاري:

فمـــا هكـــذا كانـــت وصـــاةُ نبـــيِّكم ... ومـــا هكـــذا الإنصـــاف أعظـــم بـــذا المثـــلْ
فهـــل بعـــد هـــذا مـــن مقـــال لقائـــل؟ ... ألا قـــــبَّح اللّه الأمـــــانيَ والعلـــــلْ

فالاستفهام هنا لم يكن طالباً الإجابة، بل أفاد التقريع والتوبيخ، بأن لا عذر من جاءته هذه المقالات، وهذه الحجج، ومن ثمّ ينكر وينكص ويكابر، ويقول حسان بن ثابت بهذا الصدد:

مَـــن ذا بخاتمـــه تصـــدَّق راكعـــا ... وأســـــرَّها في نفســـــه إســـــرارا
مَـنْ كـان بـات علـى فـراش محمَّـد ... ومحمَّـــــدٌ أســـــرى يـــــؤمُّ الغـــــارا
مَـــنْ كـــان في القـــرآن سُـــمّيَ مؤمنـــا ... في تســـع آيـــات تُلـــين غـــزارا[٥١]

تكرار الاستفهام خرج هنا للتقرير، ولزوم الاعتراف بفضل علي ـ عليه السلام ـ الذي أطبقت فضائله الكون، فلا يمكن إنكارها وجحودها.

ب ـ الانزياح الشرطي:

وهذا الانزياح يُبتنى غالباً على الإطالة التي تفيد ترسيخ الأمر الاحتجاجي، ومبعث هذه الإطالة ناتج عن أن الجملة الشرطيّة تحتاج جملتين: الأولى جملة فعل الشرط، والثانية جوابه. والمثال عليها قول السيّد الحميريّ:

يحـــــلُّ النـــــار قـــــومٌ أبغضـــــوه ... وإن صـــلُّوا وصـــاموا ألـــف عـــامِ[٥٢]

يتماهى هذا الانزياح بما يحتمل من تقريع وتعنيف وزجر، إذ إنّ الاحتجاج جاء بوساطة الشرط؛ ليقع في كلمات صادمة جزلة، لتكون الصلاة وهي عمود الدين، والصيام، لا نفع بهما؛ لأنّهما لم تكونا مستندتان على الولاية التي فرضها الله تعالى.

جـ ـ القسم:

يُعدُّ القسم ممارسة إنسانيّة يُلجأ إليها من أجل تصديق دعواه، واعتماد قوله، بغية التأثير بالآخرين وإقناعهم، وتستحضر هذه الوسيلة الطبيعيّة بعض الأدلة معها، ولا تعتمد على القسم فحسب، حتى تكون البنية الحجاجيّة أكثر ثباتا، وأقوى قولا، وإلّا عُدّت مجرّد هرب من المنازلة الحجاجيّة، إذ يجب أن تعضد بوسائل أخرى توثق الكلام وتعلي من شأنه. يقول

محمد الحميري في مطلع قصيدته:

بحـــقِّ محمـــدٍ قولـــوا بحـــقٍّ ... فـــإنَّ الإفـــكَ مـــن شـــيم اللئـــامِ
أ بعـــد محمـــد بـــأبي وأمِّـــي ... رســـول الله ذي الشـــرف التـــهامي
أ لـــيس علـــيٌّ أفضـــل خلـــق ربي ... وأشـــرف عنـــد تحصـــيل الأنـــامِ(٥٣)؟!

كان القسم بوساطة (بحق محمد)، بمعنى ما أوجبه الله تعالى على الناس من راعية حق الرسول ﷺ بدلالة قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾(٥٤)، أي: بما بذل من جهد النبوة، وأعباء الرسالة، وليس بمعنى ما يوجبه الانسان على الله من حق، لأنه لا أحد يفرض على الله جلا وعلا حقا مهما كانت مرتبة حتى وإن كانت مرتبة النبوة، وعاضد القسم أسلوب بديعي هو الجناس التام، فـ (حقّ) الأولى بمعنى القسم، و(حقّ) الثانية بمعنى العدل والحقيقة، وقد تعاضدا الاسلوبين على ترسيخ الحجاج في أجواء القصيدة.

هـ ـ النفي:

يتمظهر أسلوب النفي الحجاجي، بتصوّر طرف آخر محاور يتفاعل معه المنشئ، بأن ينكر عليه وينقضه؛ ليطرح عليه رأيه الجديد، المؤيّد وجهة نظره الخاصّة، المدعومة بالنفي. وهذا النوع من الحجاج، يمكن التمثيل عليه بقول محمد الحميري:

ولا والله لا تزكـــــو صـــــلاةٌ ... بغـــير ولايـــة العـــدل الإمـــامِ(٥٥)

إذ دعم الشاعر نفيه بالقسم، في مسعى لتوكيد الحجاج، موقفا وفكرا، فاحتاج إلى هذين المقامين التواصلين من أجل توطيده؛ لأنّه أمام مستقبل منكر، لا يعتقد بأنّ الصلاة لا ترفع أو تزكو إلّا بالولاية، وهذا الانكار تطلّب قوّة تواصليّة أكبر من الحجاج؛ لتستطيع الوصول إلى هدفها الإقناعي.

ثالثاً: الوسائل البيانيّة

تضخ البلاغة جوانب عاطفيّة وجماليّة يفيد منه الحجاج؛ لأنّ النفس الإنسانيّة تسكن وتهدأ عندهما. فالخطاب الممتع البليغ أكثر تقبلاً واستجابة من التقريري أو الركيك، الذي ربّما يعطي مردودات عكسيّة، ويتمّ ذلك بالابتعاد عن القول المباشر الصريح، إلى آخر مجازي تصويري، من تشبيه واستعارة وكناية وغيرها من وسائل المجاز، وهذا لا يعدُّ ترفا أو

زخرفا مثلما يُعتقد، بل يحمل في طيّاته منحنيين حجاجيين، أحدهما: جمالي تميل النفس وتنجذب له، لما يتضمن من صورة بلاغيّة فنيّة، وآخر معنوي يتعاضد والمنحى الجمالي، يقوي فضاء المعنى، ويسانده ويبرزه بصورة أوسع. وهو يبعد الملل والتكاسل، وتشتت الانتباه؛ ممّا يضرُّ بالغاية الحجاجيّة، بخلاف الحجاج غير البلاغي الذي لا يُسهم في تقوية القدرة التركيزيّة، والتبيئريّة؛ لهذا "كان من مصلحة الخطاب الحجاجي أن يُقوّي طرحه بالاعتماد على الأساليب البلاغيّة والبيانيّة، التي تُظهِر المعنى بطريقة أجلى، وأوقع في النفس"[٥٦]، إذ يرسّخ النمط البلاغي مبدأ الإقناع والمداومة والتأكيد المتحلّية بها الأساليب البلاغيّة، فضلا عمّا يجلبه من وسائل مبالغة، وتفخيم، وتعظيم، وتهويل؛ تسببه أنماط كسر المألوف، وابتكار تراكيب جديدة؛ لأنّ مجال الحجاج يبقى ضمن فضاء المحتمل والمتوقّع غير المؤكّد. ومن سائل البلاغة الحجاجيّة الآتي:

أ ـ التشبيه

يقوم التشبيه على التقريب بين موضوعات تبدو فيهما بينها سمات مشتركة، ويفترض أنّها متجاورة جداً في الوجود، وهذا ما يعرف بـ (المشابهة العرفيّة)، ولكنّ المبدعين من الشعراء والناثرين وبفعل المشابهة المكثّفة يسعون للربط بين موضوعات غير متجانسة، ووضعيات غير متلائمة، وغير متجاورة في الوجود الخارجي، فينتجون تشبيهات مبتكرة[٥٧]؛ والتشبيه سواء كان عرفيا أو مكثفا ينتجان وظيفة حجاجيّة؛ لأنّ "الأساليب البلاغيّة قد يتمّ عزلها عن سياقها البلاغي؛ لتؤدي وظيفة لا جماليّة إنشائيّة؛ بل تؤدّي وظيفة إقناعيّة استدلاليّة (كما هو مطلوب في الحجاج)، ومن هنا يتبيّن أنّ معظم الأساليب البلاغيّة تتوفّر على خاصية التحوّل؛ لأداء أغراض تواصليّة، ولإنجاز مقاصد حجاجيّة، ولإفادة أبعاد تداوليّة"[٥٨]. ويمكن التمثيل للتشبيه الحجاجي بقول السيّد الحميريّ:

ومتى يَمُت يَرِدِ الجحيمَ ولا يَرِدْ ... حوضَ الرسولِ وإن يَرِدْهُ يُضرَبِ
ضربَ المُحاذِرِ أنْ تعرَّ ركابُهُ ... بالسوطِ سالفةَ البعيرِ الأجربِ
وكأنَّ قلبي حين يَذكرُ أحمداً ... ووصيَّ أحمدَ نيطَ[٥٩] من ذي مخلبِ[٦٠]

ينبع التشبيه هنا من حاضنة الوسيط البيئي: (تعرُّ ركابه ـ السوط ـ البعير الأجرب)، فهو ينشئ وعيا حجاجيا اجتماعيا غير مغترب عن ثقافته ونزعة مجتمعه، بموازاة منهجه

الإقناعي، وتأتي أهمية مراجعة الواقع الحجاجي بماضويته وإسقاطاته على حاضرنا بشرط إغناء هذا الماضي ومراجعته مراجعة ترفض التعميم والتعمية، بل اكساؤه بتأويل نصي معرفي، فالأبيات المبتنية على (التشبيه البليغ)، في وصف الضرب الذي يناله جاحد الولاية، بوساطة المفعول المطلق: (يضرب ضربَ المُحاذر)، وتشبيه حال قلب الشاعر عندما يذكر الرسول ﷺ، ووصيه عليه السلام، وكأنّه يلقى الأجل بين مخالب مفترس؛ يذودان معرفيا على نصرة الحقّ المبني بوجه الخصومة المتداخلة ثقافيا واجتماعيا، ويفتح المجال أمام القارئ للتمييز والمغامرة بتغيير الرؤى المأسّسة مسبقا، نتيجة لخلفيات تراثيّة مكتسبة بيئياً واجتماعياً.

ب ـ الاستعارة

الاستعارة قيمة مركزيّة في الفكر البشريّ، قائمة على تفاعل فكرينِ، تتعامل مع الموضوعات، في شبكة من العلاقات مثل المشابهة والمجاورة والتضمين(٦١)، ويرى أصحاب النظرية الانفعاليّة أنّ للاستعارة القدرة على إثارة المشاعر، والتأثير على العواطف، فالاستعارة ليس من وظائفها نقل المعلومات، والأخبار، بل تذهب بعيدا إلى ما وراء اللغة الحرفيّة؛ لتؤثّر على المشاعر والعواطف(٦٢)، ولاشكّ أن التأثير وظيفة حجاجية بامتياز؛ لأنّ "الاستعارة تمزج بين الشعور واللاشعور، ولما كان اللاشعور هو مثوى الانفعالات الإنسانيّة، فإنّ الاستعارة تقوم بعملية تنشيط القوى الوجدانيّة بما تحمل من هذه الانفعالات، وبما تملك من مساعدة على استيعاب العمل الفني، ومن ثمّ تكشف عن طبيعة الإنسان الحقيقيّة بما هي صدى اللاشعور"(٦٣)، ويمكن التمثيل على الاستعارة الحجاجيّة بقول الكميت بن زيد الأسدي:

فما لي إلّا آلُ أحمدَ شيعةٌ ... وما لي إلّا مشعبُ الحقِّ مَشعبُ

يقدّم الانزاح في الحصر توطئة إقناعيّة مهمّة: (فما لي إلّا)، فضلا عن الاستعارة: (مشعب الحقّ). وهذا الاتساق بين الحصر والاستعارة يجعل الغاية الحجاجيّة غير رتيبة مملة؛ ولهذا عدل الشاعر عن المعنى الاعتيادي إلى كسر هذه الرتابة، بوساطة هذينِ الانزياحين؛ ليحقّق الأدب: "إثبات شهرة الحديث، وتواتره في كلّ جيل، وأنّه من أظهر ما تلوكه الأشداق نظما ونثراً"(٦٤). وقال كذلك:

إذا أنا لم أحفظْ وصاةَ محمّد ... ولا عهدَهُ يومَ (الغديرِ) مؤكّدا

فإنّي كمَنْ يشري الضلالةَ بالهدى ... تنصّرَ مِنْ بعد الهدى أو تهوَّدا

الاستعارة المكنيّة في (يشري) أي: (يختار)، بقرينة (الضلالة)؛ لأنّ الضلالة لا تشترى، وهذه الاستعارة امدّت الهدف الحجاجي امتدادا قرآنيا في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾[٦٥]. وامتدادا تاريخيا، فما زال بعض الناس يعيشه سيميوطيقا؛ فلم يُحفظ وصي الرسول ﷺ، فكانت الاستعارة بمثابة فضح أقنعة الزيف الأيدلوجيّة وتعريتها بلاغيا، والتغلغل في داخل العقل الإسلامي المطلق بالعودة إلى تأصيل الوحدات التاريخيّة التي نعاني منها ليومنا الحاضر؛ لأنّ من أهداف الاستعارة الحجاجيّة "إحداث تغيير في الموقف الفكريّ، أو العاطفيّ للمتلقّي"[٦٦] بعد أن انتقلت من دائرة الجمالي البياني، إلى دائرة أوسع وأعمق هي الاتصال الحجاجي، وتوظيف الوعي عبر سياقاتها المعتملة بها تركيبيا وبنيويا على ضوء المتغيّر الراهن؛ لأنّ "قوّة الحجاج في المفردات تبدو في الاستعمالات الاستعاريّة أقوى ممّا نحسّه عند استخدامنا لنفس المفردة بالمعنى الحقيقيّ"[٦٧]، بعد التغيير الذي يجري في سماتها، والأثر الحجاجي التي تحدثه عملية التخيّر الدلالي.

وقال الشاعر دعبل الخزاعي:

قفا نسأل الدار التي خفَّ أهلها ... متى عهدها بالصوم والصلواتِ[٦٨]؟!

تساءل الدار، وطلب الإجابة منها، وهي الجماد التي لا يتكلّم نوع من الاستعارة التي تندمج فيها الاستعارة الشعريّة، القائمة على الإبداعيّة، والاستعارة الجذريّة التي تتمظهر بلغة الناس الاعتياديّة[٦٩]، لإنشاء دليل فني بسؤال الجماد، وإجابته، بعد أن جعل منه كائناً حيّاً يستجيب للسؤال، وقد زامن أهل العصمة ـ عليهم السلام ـ، وهم يتعهّدون الصوم والصلاة، وأفعال الخير جميعا.

٣ـ الكناية

الكناية إحدى وسائل اللغويّة التي تقوم بتغيير النظرة السائدة، أو الاعتقاد الباطل، أو كشف الدجل الذي تحاوله السلطة، فيأتي الحجاج الكنائي بمهمة تعريفيّة تكشف المستور، وتظهره للسطح، في محاولة لتعديل السائد المشهور، وقلبه والثورة عليه، وإحباطه بوسائل بيانيّة، ومرجعيّات لغويّة، والكناية بما أنها تتناوب بين العلاقة بين ركنين (المكنّى به ـ المكنّى عنه)، بين إطاري الظهور (غير المقصود)، والخفاء (المقصود)، والخفاء عملية حجاجيّة

يستعملها المنشئ لأجل الثبوت، فلكما كان المعنى أكثر خفاء وسترا، كان للقلب أكثر تعلّقا، فعندما يتوارى المعنى يسعى المتلقّي إلى إظهاره، وهذا السعي علمية فكريّة تستوجب فضح المغالطات والسفسطائيات، والاستقرار على قاعدة رصينة من المطارحة والمكاشفة والمحاججة؛ لقلب الاعتقاد الباطل بآخر صحيح مقدّمة ونتيجة. ومن الأمثلة على هذا الحجاج قول أبي محمّد سفيان بن مصعب العبديّ الكوفيّ:

قَالُوا لَه: إنْ كَان أمرٌ مَن لنا ... خلفٌ إليه في الحوادثِ نرجعُ؟
قال النبيُّ: خليفتي هو خاصفُ ... النعلِ الزكيُّ العالمُ المتورِّعُ[٧٠]

خاصف النعل كناية عن موصوف، هو الإمام علي ـ عليه السلام ـ وفي هذا الأسلوب الكنائي نجد أنّ المعنى لم يظهر بصورة مباشرة، إلا بعد الرجوع إلى الرواية والحادثة الروائيّة التي تشير إليها، فلم يُعطَ بصورة مباشرة، إلّا بعد كدّ ومراجعة وإعمال فكر، وهذا أجلى في استظهار البنية الحجاجيّة، اذ تشير الراوية أنّ الإمام علي ـ عليه السلام ـ كان يتعهّد نعلي الرسول الأكرم في خصفهما، والعناية بالرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم[٧١]. وقال دعبل:

تجاوبن بالأرنان والزفراتِ ... نوائح عجم اللفظ والنطقاتِ[٧٢]

نواح عجم (كناية عن موصوف)، والمراد بها (الطير)، و(النطقات)، من البشر عامّة، بعد أن تخيّل الشاعر وجود نوائح من العجم (الطير)؛ لأنّ الحجاج في أحد أبعده التداوليّة الإقناعيّة هو التخييل، فضلا عن البلاغة، بعد تداخلهما وتواشجهما[٧٣]. وكانت المقدّمة الشعريّة بمثابة تمهيد حجاجي مهم لإظهار العلاقة التكوينيّة بين المقدّمة والغرض الرئيس، وبعد تفكيك أجزائه نلاحظ البعد المهيمن، وهو التحسر والبكاء والشجن لما ضاع من حقّ الإمامة، فالمحتوى العام للقصيدة لم يكن غائبا في جزء من أجزائها، وكان النسيج الكنائي مساعدا في إدارك الموقف الحجاجي وإيحائه من القصيدة بصورة عامّة. قال النجاشي:

فمرنا بما ترضى نجبك إلى الرضى ... بصمِّ العوالي والصفيح المهنَّدِ[٧٤]

في البيت كناية عن صفة في: (نجبك بصم العوالي والصفيح المهند)، كناية عن الاستعداد والبطولة وسرعة الاستجابة، وقد جاءت الكناية لتبرهن حجاجيا على مدى الاستعداد في خوض غمار الحرب من أجل نصرة الحق، والثابت على الموقف الحق، ودحض الباطل بما يمتلكون من همة ومقاومة.

لقد جاءت الكناية لتحقق حجاجا مساندا نابعا من واقع البيئة المعيشة يومذاك، فلم تكن مغتربة، وهذا ما يكون أكثر منطقيّة وحجيّة في نفس المتلقّي، ويعزّز الأثر الذي يتركه في نفس المتلقّي من حالات الاطمئنان والإذعان، وامتناع الإنكار.

الخاتمة:

إنّ للحجاج آلياته وأساليبه التي استعملها الشعر والأدب في إثبات أحقيّة الإمام عليّ عليه السلام في الخلافة، وأسبقيته، وريادته في تقليد زمام أمر المسلمين، فكانت الحجاجيّة الأدبيّة التي أثبتها كتاب السيّد عبد الحسين الأميني (الغدير في الكتاب والسنة والأدب)، مستندة إلى أبعاد برهانيّة تتكامل وآليات المجادلة والاستدلال؛ وصولاً إلى فرضية الإقناع والإذعان والاعتراف، فقد وعى شعراء الغدير بصورة فطريّة وعمليّة نجاعة الفعل الخطابي المستند لآليات استحضار ظرف المتلقّي وطبيعته وتنوّعه ومشاعره اتجاه بنية يوم الغدير، واستطراده عبر الأجيال المتابعة؛ فكان خطابهم حاضرا بيننا ليومنا هذا، بصورته، ومقامه، وجوهره، وبلاغته المطلقة، المعتمدة على المجادلة والمصارحة والمحاورة، في تشاكل قصدي في بنائه وغرضه الولائي، مسندا إلى إبراز مرجعيّته التبليغيّة الممتدّة لما أسّسه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم عندما بلّغ واتمّ رسالته، فكان صوت شعراء الغدير صوتا غير منقطع الجذور لذلك التبليغ الحجاجي الناصع.

كانت تقنيات الحجاج موظّفة بطرائق واسعة عند شعراء الغدير، متوازنة بين ملفوظها المحكي والمقامي مستوفية إجراءات الانسجام والمنطق والتأويل، ووعي الاختيار الأسلوبي والتكثيف، وربط الأحداث فيما بينها، وتفسيرها، ولم تكن الأساليب البلاغيّة غريبةً ونشازاً عن تلكم الغاية؛ بل منشغلة متناغمة في البناء الحجاجي، محقّقة أهدافها الإقناعيّة الكامنة داخلياً في طياتها اللسانيّة، غير منفصلة عن طابعها البرهانيّ.

هوامش البحث

(١) ظ: الجزار، محمّد فكري: ٢٦٤.

(٢) الأميني: ١٢/٢.

(٣) ظ: الأميني: ٢١/٢.

(٤) الأميني: ٣٣/٢.

(٥) الكميت، ابن زيد الأسديّ: ١٤٦.

(٦) ظ: الأميني: ٣٣/٢.
(٧) الأميني ١٣/٣.
(٨) سورة الإنسان، الآية: ٣.
(٩) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٤.
(١٠) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٧.
(١١) القيرواني، ابن رشيق: ٤.
(١٢) القيرواني، ابن رشيق: ٢٧.
(١٣) التبريزي، محمد بن عبدالله الخطيب: ٤١٠، وفي رواية عن عائشة أن الرسول الأكرم (ص) قال: "أهجو قريشاً فإنَّه أشدُّ عليهم من رشق النبل"، ظ: المصدر نفسه: ٤٠٩.
(١٤) العامليّ، محمّد بن الحسن الحرّ: ١٦٨/١٧، الباب: ٤٣.
(١٥) القمي، ابن بابويه: ٤ /١١.
(١٦) صمود، حمّادي: ٦٠.
(١٧) حمداوي، جميل: ٢٤.
(١٨) المصدر نفسه: ٢٩.
(١٩) ظ: الخولي، أمين: ١٠٨.
(٢٠) الباهي، حسّان: ١٢.
(٢١) ظ: الريفي، هشام: ٢٤٨.
(٢٢) المصدر السابق.
(٢٣) ظ: حمداوي، جميل: ١٠
(٢٤) صولة، عبدالله: ٢٩٩.
(٢٥) عبدالرحمن، طه: ٦٥.
(٢٦) ظ: المبخوت، شكري: ٣٩٥.
(٢٧) ظ: المصدر نفسه: ٣٧٨.
(٢٨) العمري، بسلم: ٦٨.
(٢٩) ظ: العزاوي، أبو بكر: ١٨ – ٢٠.
(٣٠) الأميني: ١٣٨/٢.
(٣١) الأميني: ٣١٨/٢.
(٣٢) ظ: خليفة، بو جادي: ١٠٦ – ١٠٧
(٣٣) الأميني: ٥٠/٢.
(٣٤) الأميني: ٥٠/٢.

(٣٥) الزَّفُر: الشجاع، ظ: ابن منظور، مادة: (زفر).
(٣٦) الأميني: ٢/ ٣٣٩.
(٣٧) البخاري: ١٣٤/٥.
(٣٨) ظ: الشهري، عبد الهادي بن ظافر: ٢٥٧.
(٣٩) سورة النحل، الآية: ١٢٥.
(٤٠) هو قيس بن سعد بن عُبادة الأنصاري الخزرجي، كان أبوه من زعامات الخزرج وسيدها، ولد في أوائل القرن الأول للهجرة، نال شرف صحبة الرسول الأعظم ﷺ، واشترك في معارك بدر وأحد والخندق، فضلا عن معارك الإمام علي - عليه السلام - الجمل وصفين والنهرين، واستمرت هذه الصحبة الشريفة للإمامين علي والحسن - عليهما السلام - من الذين رفضوا بيعة أبي بكر، كان من ضمن الذين أرسلهم الإمام علي - عليه السلام - مع الإمام الحسن - عليه السلام -، وعمّار بن ياسر إلى أهل الكوفة؛ لحدثهم على مقاتلة أهل الجمل.
(٤١) الأميني: ٢/٩٧-٩٨.
(٤٢) الشهري، عبد الهادي بن ظافر: ٣٢٥.
(٤٣) الأميني: ٢/٣٣٩.
(٤٤) الأميني: ٢/ ٩٨.
(٤٥) عبدالرحمن، طه: ٣٨.
(٤٦) سورة الإنسان، الآية: ٣.
(٤٧) الأميني: ٢/ ٢٥٢.
(٤٨) الأميني: ٢/ ٢٥٣.
(٤٩) لشهري، عبد الهادي بن ظافر: ٣٠٣.
(٥٠) ظ: المصدر نفسه: viii.
(٥١) الأميني: ٢/ ٦٥.
(٥٢) الأميني: ١٠٨/٢.
(٥٣) الأميني: ٢٠٨/٢
(٥٤) سورة الشورة، الآية: ٢٣.
(٥٥) الأميني: ٦٥/٢.
(٥٦) الحباشة، صابر: ٥٠.
(٥٧) ظ: سليم، عبدالإله: ١٦٢.
(٥٨) الحباشة، صابر:٥٠.
(٥٩) النيط: الموت والأجل، ظ: ابن منظور، مادّة (نيط).
(٦٠) الأميني: ٢/ ٢٥١-٢٥٢.

(٦١) ظ: سليم، عبدالإله: ٦٤.
(٦٢) ظ: أبو العدوس، يوسف: ٢٢٥.
(٦٣) المصدر نفسه: ٢٤٩.
(٦٤) الأميني: ١٨/٢.
(٦٥) سورة البقرة، الآية: ١٦.
(٦٦) أوكان، عمر: ١٣٤.
(٦٧) لوجيرن، ميشيل: ٨٧-٨٨.
(٦٨) الأميني: ٣٧٠/٢.
(٦٩) ظ: سليم، عبدالإله: ٦٤.
(٧٠) الأميني: ٣٧٠/٢.
(٧١) الأميني: ٣٧٠/٢.
(٧٢) الأميني: ٤٠٩/٢.
(٧٣) العمريّ، محمّد: ٦.
(٧٤) الأميني: ٩٧/٢.

قائمة المصادر

- ابن منظور، (ت:٧١١هـ)، لسان العرب، تصحيح: أمين محمّد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيديّ، دار إحياء التراث العربيّ ـ بيروت، ط٣، (د.ت).
- أبو العدوس، يوسف، الاستعارة في النقد الأدبي الحديث، الأبعاد المعرفيّة والجماليّة، الأهليّة للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ١٩٩٧.
- الأميني، عبد الحسين، الغدير في الكتاب والسنة والأدب، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.
- أوكان، عمر، اللغة والخطاب، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠٠١.
- الباهي، حسّان، الحوار ومنهجيّة التفكير النقدي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠٠٤.
- البخاري، (٢٥٦هـ)، صحيح البخاري، اعتنى به: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدوليّة للنشر، الرياض، ١٩٩٨م.
- بو جادي، خليفة، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم.
- التبريزي، محمد بن عبدالله الخطيب، مشكاة المصابيح، تح: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٩٨٥م.
- الجزار، محمّد فكري، سيميوطيقا التشبيه من البلاغة إلى الشعريّة، نفرو للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م.

- الحباشة، صابر، التداولية والحجاج، مداخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر، ط١، سورية، ٢٠٠٨م.
- الحباشة، صابر، محاولات في تحلل الخطاب، المؤسّس الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م
- حمداوي، جميل، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠١٤م
- الخولي، أمين، فنّ القول، دار الكتب المصريّة، ١٩٩٦م.
- الريفي، هشام، الحجاج عند أرسطو، هشام الريفي، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود.
- سليم، عبد الإله، بنيات المشابهة في اللغة العربية مقاربة معرفيّة، دار دوبقال للنشر، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠١م.
- الشهري، عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيّات الخطاب مقاربة لغوية تداوليّة، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ط١، ٢٠٠٤.
- صولة، عبدالله، الحجاج أطره ومنطلقاته تقنياته، ضمن كتاب (أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم) بإشراف: حمادي صمود، منشورات كلية الآداب بمنوبة، ١٩٩٩.
- العامليّ، محمّد بن الحسن الحرّ (ت: ١١٠٤هـ)، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، تح: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت، ط٢، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).
- عبدالرحمن، طه، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط٢، ٢٠٠٠م
- العزاوي، أبو بكر، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٦م.
- العمري، بلسم، منزلة الأمثال العربية في ترسل ابن زيدون، دراسة في ضوء نظرية الحجاج، رسالة جامعية، الجامعية الأردنية، ٣٠١٣.
- العمريّ، محمّد، بلاغة الخطاب الإقناعي، إفريقيا، المغرب، ط١، ٢٠٠٢م
- القمي، ابن بابويه، (٣٨١هـ)، من لا يحضره الفقيه، انتشارات إسلامي التابعة لجماعة المدرسين، ط٣، ١٤١٣ هـ، قم ـ إيران.
- القيروانيّ، ابن رشيق، (٤٥٦هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقد، تح: محمّد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط٤، ١٩٧٢م.
- الكميت، شرح هاشميّات الكميت، تفسير: أبو ريّاش أحمد بن إبراهيم القيسي، تح: داود سلوم، نوري حمودي القيسي، علم الكتب، ط٢، (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)
- لوجيرن، ميشيل، الاستعارة والحجاج، مجلّة المناظرة، المغرب، السنة الثانية، ع/٤، ١٩٩١.
- المبخوت، شكري، ضمن كتاب: أهم نظريّات الحجاج في التقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم، إشراف، حمّادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس (د.ت).